

في الليل الموحش العتم كانوا يتمترسون خلف الأكياس الرملية على الشاطئ، أيدיהם ممسكة بالبنادق العتيقة (أبو فتيل) وبالسيوف الحادة، وونيسهم الوحيد موسيقى تبعثها الرياح الخريفية عبر أمواج البحر. وهناك بعيداً يعيدها تتصبب على الرمال البيوت السعفية والطينية - وأخر أطلالها هذا الجدار - تخترن صدى البكاء والعويل على القتلى والجرحى بتلك النيران، يرميها ذلك الشيء المخيف الرابض في كبد البحر. كان الوحش يرسل جراثيمه بين الحين والآخر، عبر قوارب تجذيف تتسلل إلى الشاطئ وتنشر الذعر والخوف. الرجال صامدون يحرکهم مصير واحد، فالشهادة مطلب في مواجهة الغريب الذي جاء ينهب ويسرق ابتسامة تأبى أن تفارق الأرض الرائحتها عطاء دائم، ودروبها خطوات العاشقين في الليالي القمرية. عبرت الزفاف الضيق. تكاثرت الأدخنة أحست بالدم يتتصاعد في عروقي. خطوط بسرعة في الزفاف الرطب المؤدي إلى المنزل السعفي ذي الحصن الدافئ والابتسامة البريئة. أسرعت عندما مر أحد القوم وهو يردد (لا حول ولا قوة إلا بالله). كبرت الدهشة وتفجرت، إذا بي أمام تجمع الحي. تسابقت أيدي القوم تربت على كتفي وتواسيوني (أحسن الله عزاك يا بو عبدالله)، تجمد الدم في عروقي، - الأولاد!! . أين الأولاد وأمهم؟ لزم الرجل الصمت مرتمياً على صدرني. انفجر باكيأً وهو يردد (أحسن الله عزاك فيهم). أغورقت عيناي واحتضنته بكل قوتي وضفت بجسمه على صدرني. خنقت بداخلي الصرخة الحادة، تقدم أحدهم: كنا نطفئ حريقاً. هرعت مجموعة من الرجل، مادت الأرض من تحتي. اتكأت على أكتاف من كان بجانبي. حرارة المكان تلفحني وتزيد دمي غلياناً، اقتربت من الجثث الملقاة على بقايا السعف الذي تم إنقاذه. جثوت على ركبتي والعرق ينضج من جسدي بغزاره. أعدت الغطاء. خطوط نحو الركام. ضغطت عليه بشدة. - شموا رائتها. إنه. كيف أقول لهم إن هذه القبضة من الرماد هي الحياة التي خنقت، وأغانى المراجيح وضحكات العاشقين والسمار في الليالي الجميلة وقد تحولت رماداً أسود؟ وجم الرجال. بصمت بدوا. انشغلنا في إعداد الجثث لدفنها في الصباح الباكر بعد صلاة الغائب، تداعت في مخيلتي صورة الأم والأولاد والحكايات الحلوة على (المنامة) المزروعة وسط ذلك المنزل. افترشت قطعة قماش هندية كنت أضعها على رأسي (غترة). جرفني بكاء حاد. زرعت وجهي في حضن الرمال. ثم استقلت وعيناي مشدودتان تجاه ذلك الوحش، (مبارك)... (الشاحوف)... أجل الشاحوف. لا بد أن يرحل قبل أن أواريهن التراب). الأشباح في داخلي ومن حولي، والظلمة تشتد. وصلت الشاطئ. لفتحتني نسمات الخريف الآتية من البراري وأنا أنزلق إلى الماء لأجدب الشاحوف، قفز مبارك من نومه مرعوباً على أثر ارتطام الشاحوف برمال الشاطئ. يا هلا. وجدتها وأمسكت بها. تراجع إلى الخلف خائفاً. أبو عبدالله ماذا جرى؟ تناولت طرف القماش الذي كان يلتحف به مبارك ومسحت السكين من بقايا الأسماك والأعشاب البحرية. سيرحل الليلة. وكأنه شعر أن الأمر لا يعود أن يكون دعاية عابرة. - وكيف يا بو عبدالله وهو يدمر كل شيء وها قد مرت عشرة أيام ولم يبق من البلد إلا أطلالها. لم أتركه يكمل. سحبت المرساة، وضعتها على السطح الأمامي. ثبت المجاديف. ودفعت بالشاحوف إلى أعماق البحر. - ما عليك يا مبارك الآن إلا أن توصلني إلى ذلك الوحش. - ولكن يا بو عبدالله...! - أعرف أن الشاحوف صغير والأمواج بدأت ترتفع، لكنها الفرصة الوحيدة التي ستساعدنا للوصول بقربه دون أن يشعروا. - أبو عبدالله... ما الذي يدور في عقلك؟ استمر في التجفيف والزم الصمت حتى نصل. حيث الأمواج السريعة الانكسار، واستمر الشاحوف بالانزلاق وسط الصمت حتى اقتربنا. ابتعدنا قليلاً حتى يهجنوا للنوم. تكلم لماذا تلزم الصمت؟ - أبو عبدالله إن هذا لجنون. سيقتلونك. ولكن. - لا. لا تنتظري يا مبارك. لقد قمت بعمل جبار. مدین لك به. - حالماً أنزل ابتعد بالشاحوف وعد إلى الشاطئ، رائحة الحريق والرماد السعفي تتفاعل بدمي وثير في عطش اللحظة التي سأطفي فيها نار الخراب. بعد أن استدرنا. توقفنا. خلعت الفانيلة (والوزار). نزلت إلى الماء بعد أن ثبت السكين بالحزام الذي هو عبارة عن خيوط صوفية محاكاة بإتقان، اقتربت من حبل المرساة. تعلقت به. سرت في رعشة عندما لامست رجلاني هيكله الحديدي البارد. سيطر الخوف، ظلت أرتجف، بعد أن اقتنصلت فرصة نومهم جميعاً. تسلقت بواسطة حبل المرساة وضربات قلبي تزداد قوة، وقفـت منحنـياً أرافقـ الحارس، وهو يتحرك في الظلام جيئـة وذهابـاً في خطوات منسقة ووقع أقدامـه يثيرـ في الرعبـ. فـحـصـتـ كلـ شيءـ. تـقدـمتـ إلىـ (الغمـارـةـ)ـ وإـذاـ بيـ أـشـاهـدـ حـارـساـًـ عـلـىـ بـابـهاـ وـهـوـ أـمـرـ لـمـ أـكـنـ أـتـوقـعـهـ.ـ اـفـتـرسـنـيـ الـخـوـفـ بـيـدـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ لـيـ خـيـارـ.ـ تـسـلـلتـ إـلـيـ بـحـذرـ وـبـادـرـتـ بـضـرـبةـ قـوـيـةـ بـالـسـكـينـ فـيـ صـدـرـهـ.ـ كـتـمـ أـنـفـاسـهـ بـيـدـيـ الـأـخـرـىـ وـسـقـطـ مـتـكـئـاـ عـلـىـ ذـرـاعـيـ.ـ غـارـقـ فـيـ نـوـمـ عـمـيقـ.ـ سـيـطـرـ عـلـيـ الـخـوـفـ وـتـوـجـسـتـ فـيـ حـقـيقـتـهـ.ـ رـبـماـ لـاـ يـكـنـ القـائـدـ بـعـيـنـهـ.ـ صـورـ الـمـآـسـيـ وـالـحـرـائـقـ وـالـأـطـفـالـ الـيـتـامـيـ وـالـمـراـجـيـعـ الـتـيـ شـنـقـتـ عـلـيـهـ الـأـغـانـيـ.ـ هـوـيـتـ بـيـدـيـ الـمـرـتـجـفـةـ بـالـسـكـينـ عـلـىـ صـدـرـهـ،ـ وـحـبـسـتـ أـنـفـاسـهـ بـمـخـدـةـ قـطـنـيـةـ مـنـعـاـ لـلـضـوـضـاءـ وـالـصـرـاخـ.ـ شـعـرـ الـحـارـسـ بـالـأـمـرـ وـشـاهـدـتـهـ يـقـتـرـبـ مـنـ خـلـالـ الـأـفـقـ الـبـعـيدـ.ـ أـسـرـعـتـ بـاتـجـاهـ الـبـابـ مـتـعـثـراـ بـأـكـوـامـ الـحـيـالـ.ـ قـفـزـتـ إـلـىـ الـبـحـرـ غـائـصـاـ فـيـ الـأـعـماـقـ وـهـوـأـجـسـ.ـ الـخـوـفـ وـالـأـرـتـبـاـكـ تـمـلـكـ مـنـيـ النـواـصـيـ.ـ وـحـالـمـاـ طـفـوتـ إـلـىـ السـطـحـ أـمـطـرـيـ الـجـنـودـ بـرـصـاصـ بـنـادـقـهـ.ـ أـصـبـتـ فـيـ ذـرـاعـيـ الـيـسـرـيـ.

فقدت على إثراها قواي، غير أنني ظللت أصارع الأمواج وألم الجرح حتى ارتطمت بالشاطئ. زحفت على الرمال متلبساً بهستيريا لم أحتملها. حملقت بالوجوه المحيطة